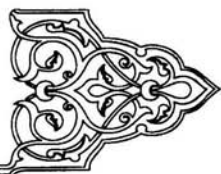


الشرق المثير للتساؤل



«يجب أن يكون عصرنا هو العصر الذى نسمو فيه على احتياجنا إلى دين».

(سلمان رشدى: ٦ من مارس عام ١٩٩٩ فى كلامه عن الألفية الثالثة).

- ١ -

يمكن أن نلاحظ وجود مجموعتين من الطلبة الغربيين المعتنقين للإسلام. فهناك من أدى اعتناقه الإسلام إلى تحول هائل فى شخصه، حتى إنه أصبح يعيش بين عالمين، مثل عبد الهادى كريستيان هوفمان. والبعض الآخر ممن اكتشف فى نفسه شغفاً شديداً بكل ما هو عربى وإسلامى وشرقى، وهم يحاولون الآن تحقيق الإسلام حرفياً واتباع أدق تفاصيل سنة الرسول ﷺ فى أنفسهم وأسلوب حياتهم، حتى فى اتباعهم الهجرة؛ إذ إنهم يهاجرون إلى العالم الإسلامى لأسباب عقائدية. وبعض هؤلاء من معتقى الإسلام، بياغون فى التعرب فى ملبسهم ومطعمهم ولغتهم وإيائهم، حتى إن بعض المسلمين يتهمونهم بالرومانسية الشديدة فى تناوهم للإسلام، ويتهمونهم بأنهم يتجاهلون عالمية الإسلام التى لا يحدها زمان ولا مكان. بل إن محاولتهم للتعرب هذه، تزيد من تأكيد حكم مسبق يطلقه الغرب ويتبناه، مفاده أن الإسلام دين قبل عربى، هذا بالرغم من أن العرب المسلمين يمثلون أقل من ربع المسلمين فى عالم اليوم.

- ٢ -

بادئ ذى بدء، نود أن نستمع إلى المسلم الغربى - الشخصية المتخيلة - وهو يوضح الأسباب الشخصية لرغبته فى الهجرة إلى بلد إسلامى. ما العوامل الحضارية - التى تكاد تزيد على عشرين عاملاً - التى تجعل أحد المجتمعات الإسلامية جذاباً إلى درجة الرغبة فى الحياة هناك؟ كيف يعتقد أوروبى أن بمقدوره أن يعيد شحن بطاريته الأخلاقية والروحية فى أحد المجتمعات الإسلامية، وهناك فقط، وأن يعيش الإسلام فى هذه البقعة وحدها؟.

هيا نستمع إليه:

فى مقابل العائلة الغربية الصغيرة غير المترابطة، تجد العائلة الكبيرة الممتدة، التى تربطها أواصر وثيقة، تمثل اللبنة الأساسية الصلبة للمجتمع. ولا يتقص من أهمية هذا أن ظاهرة العائلة الكبيرة، لا تقتصر على العالم الإسلامى فحسب.

وبالرغم من الضغوط التي تتعرض لها العائلة المسلمة بهدف تغريبها، والمتمثلة في السياحة والأفلام الغربية المتحررة (والتي تزين الطلاق) والعولة وما تدعو إليه، فإنها - أى الأسرة - تتكاتف وتتماسك عادة في المجتمعات الإسلامية، حتى يشعر أفرادها بالدفع العاطفى والحسى، فتكون شكوى البعض من زيادة الاهتمام والرعاية وليس من غيابها.

ونرى حتى في المجتمعات النفطية المسلمة، أى مجتمعات الوفرة، اجتماع أعضاء العائلة من الذكور أسبوعياً في منزل كبيرهم، فيما يطلق عليه مجلس العائلة.

ولقد رأيت في البحرين ما يزيد على ٨٠ قرياً في مثل هذه المجالس. وطالما يتكسب أحد أفراد العائلة، فلا يجوع أحد منها.

يتم دائماً التفكير في الشيوخ والعجزة في العائلة، كما يتم أخذ الأعداد الغفيرة من الأطفال في الحسبان في أى أمر من أمور العائلة أو مصالحها.

فحتى في تركيا نفسها، ما كان من الممكن أن تجد قبل عشر سنوات داراً للمسنين. كما يرفض ملك المغرب - بشدة - إلى الآن إقامة دار للمسنين؛ لأنه يرى في ذلك مؤشراً لانهيار الضمانة الاجتماعية التي تؤمنها العائلة للفرد.

هناك حقيقة ثابتة هي: تمثل العائلة في العالم الإسلامى - سواء ثرية أو فقيرة - النسيج الاجتماعى الأساسى. وهذه هي المكانة التي كانت الأسرة في الغرب تحتلها يوماً ما قبل أن تتولى الدولة عن الأسرة الأعباء التالية: تأمين المرضى، والعاطلين عن العمل، وأصحاب المعاشات، ومن تعرض لحادثة، وكل من يحتاج إلى رعاية.

أما فى الأسرة المسلمة، فيعيش الجميع معاً، يأكلون سوياً، يصلون معاً، يحتفلون مجتمعين، يحزنون معاً، ويعايش بعضهم البعض حتى فى الوفاة، ويتم كل هذا دون ممارسة ضغوط من أى فرد من أفراد العائلة؛ وتشجع العائلة أبنائها على التفوق والتميز، فالعائلة مجتمعة تساند المواهب الفردية، وهناك أمثلة واضحة من تضامن العائلة لإيفاد أحد أفرادها الموهوبين لاستكمال دراسته فى الخارج.

ولا تغفل طبيعة العائلة المذكورة عن الضيافة ومظاهرها، خاصة أن الإسلام يدعو إلى إيواء الضيف وإكرامه لمدة ثلاثة أيام بحد أدنى (*)، وتلبية لتلك الدعوة، نشأت أساليب

(*) فى الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته». قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام، وما كان وراء ذلك فهو صدقة». البخارى في باب إكرام الضيف: حديث [٦١٣٥] وأبو داود في باب ما جاء في الضيافة: حديث ٣٧٥٠، وأبو داود [٣٧٤٨].

ومظاهر ضيافة لا يستطيع الغربى أن يفهمها، خاصة أنه مرتبط ارتباطاً شديداً بخطط منزلية ثابتة. (كان على لفرط كرم الضيافة أن أثير انتباه الزائرين الألمان الرسميين إلى الجزائر والمغرب في أثناء شغلى لمنصب السفير في هذين البلدين، إلى عدم إبداء الإعجاب الشديد، وبطريقة ألمانية، فيما تقع عليه أعينهم عند أحد مضييفهم. أما من لم يستمع إلى هذا الرأى، فكان يجد ما أبدى إعجابه به - مثل كتاب قيم، لوحة جميلة أو تحفة ثمينة - في حقائبه).

عادة ما يقوم المسلم بإحضار أكثر مما يطلبه منه أحد معارفه. فإذا كان المطلوب شراء أسطوانة موسيقية واحدة فإنك تتلقى اثنتين. إذا ما اصطحب أحد الأفراد شخصاً إلى السوق لشراء طعام أو شراب لمنزله، فلن يكون مستغرباً أن يهدى شيئاً لمنزل صاحبه.

يمثل الإحساس بالعائلة وكرم الضيافة الخلفية للدء الإنسانى والاستعداد التام لمساعدة المحتاج، التى تشع من المجتمعات الإسلامية: شعور الإخاء الذى يسود بين أبناء الأمة.

ووصى الرسول ﷺ بالجار وقال إن جبريل أكثر عليه في ذلك حتى ظن أنه سيأتيه الأمر بتوريث الجار، وأمرت آيات وأحاديث كثيرة بالأخوة وحب الناس، فهم جميعاً أبناء آدم.

لذلك يعايش الأوروبي هذه الطيبة والتسامح الذى يتعامل به المسلمون في المناطق الإسلامية كتجربة خاصة تجلب له سعادة غامرة، وينتابه إحساس غامر بالدء الإنسانى وشعور الناس بعضهم ببعض. وهذه الحقيقة تُعدُّ أحد الأسباب التى تدفع بالكثير من الفلسطينيين الكاثوليك ممن يعملون بدول الخليج العربى إلى اعتناق الإسلام.

فالمسلمون - وإن لم يسبق لهم معرفة بعضهم بعضاً - يتعانقون عند السلام، ويتحدثون بألفة شديدة دون لهجة خطاب رسمية، من الممكن أن تتوقعها من جماعة متوقعة على نفسها، وليس من جماعة دينية يفوق تعدادها مليار نسمة. ولا نستطيع أن نغفل حقيقة أن الاضطهاد الذى يتعرض له المسلم في بعض المناطق غير الإسلامية، تدفعه إلى الاحتفاء بالمسلمين الموجودين معه، مما يؤدي بالتالى إلى زيادة ارتباط المسلمين بعضهم ببعض. لكن إذا بادر المسلم فسأل مسلماً آخر شيئاً، ففى الغالب يكون هذا الشيء هو الدعاء له.

ويتجلى شعور المسلمين بالإخاء في حبهم لبذل المال بعضهم لبعض، هذه الظاهرة التى تسجل في الولايات المتحدة الأمريكية أرقاماً قياسية. فبجانب أموال الزكاة - التى تُعدُّ أحد أركان الإسلام الخمسة - هناك الكثير من الصدقات التى يدفعها المسلمون في أمريكا لأعمال الرعاية الاجتماعية. فالمسلم يعلم أنه لا يجوز له أداء مناسك الحج - وهو أحد أركان الإسلام الخمسة - إذا كان جاره في حاجة إلى المال. وتبلغ حصيلة أى حفل عشاء يضم من ٨٠ - ١٢٠

مدعواً لجمع تبرعات لصالح شأن من شئون الإسلام من ١٠٠ ألف إلى ٥٠٠ ألف دولار في بعض الأحيان. وهناك في الولايات المتحدة الأمريكية أطباء مسلمون ألزموا أنفسهم منذ أن كانوا طلبة طب - بدفع ١٠ ٪ من دخلهم لصالح شأن من شئون الإسلام، وهذا مدى الحياة.

لكن حب بذل المال لا يفسر وحده ظاهرة بناء المساجد المنتشرة في العالم الإسلامي. ولكن يضاف إليه دافع آخر وهو قول الرسول ﷺ: «من بنى مسجدًا يتغى به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»^(*). لذلك تم في تركيا في العقد الأخير بناء مسجد كل ست ساعات بالجهود الذاتية.

يمثل هذا التضامن والشعور بالانتماء الذي يسود أمة المسلمين والذي يسمو فوق أى اعتبارات عرقية، حقيقة سياسية يمكن إبرازها في أى وقت.

هذا، وإن لم يستطع مسلم - يأخذ الأمور بشكل جدى ويتعامل معها بدقة - أن يزعم أن الإسلام نجح في القضاء نهائياً على أى تفرقة عرقية أو أحكام مسبقة يارسها عرق ضد عرق آخر (فهناك الكثير من الأدلة والشواهد المبررة، ليس أقلها ما يحدث في موريتانيا وشبه الجزيرة العربية) فإنه يستطيع أن يقول - وهو لا يتجنى على الحقيقة - إنك لن تجد ديناً نجح في تقليص العنصرية والتغلب عليها بالدرجة التى حققها الإسلام.

وتؤدى فريضة الحج وظيفه هائلة في هذا الشأن؛ حيث تتلاشى فيها كل الفوارق بما فيها الطبقة والعرقية، فيتحول الحج إلى مهرجان لا تُعتبر فيه ألوان البشر، وكأن الناظر مصاب بعمى ألوان، فلا يفرق بين لون وآخر. ولقد أدت تجربة حج واحدة لأن يدرك (مالكولم إكس) - رئيس جماعة «أمة الإسلام - Nation of Islam» الذى عرف عنه معاداته للسامية وللبيض - أن جماعته «أمة الإسلام» الموغلة في العنصرية، تسير على الدرب الخاطى. ومنذ تلك اللحظة، أصبح مسلماً سنياً حقيقياً، ودفع حياته ثمناً لهذا التحول.

ومنذ تلك الواقعة، ظهرت أعداد كبيرة في المساجد السوداء، تحاول إصلاح مسارها والعودة إلى الطريق القويم للشريعة الإسلامية.

نستطيع أن نقول إن الإسلام في مجمله، يتسم بدرجة عالية من المساواة بين البشر، ذلك أن القرآن ذكر أن المرء بتقواه وعمله وليس بغناه ونفوذه، ولا بحسبه ونسبه، ولا بجباله وشهرته^(**).

(*) البخارى في باب من بنى لله مسجدًا: حديث ٤٥٠.

(**) (وَأَن أَكْرَمَكَ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ) [الحجرات: ١٣]، وجاء في الحديث «فاظفر بذات الدين».

وتتجسد فكرة العمل الصالح والتقوى، في أفضلية المرء إذا ما غاب الإمام الرسمي للجامع عن صلاة ما، فسرعان ما يتم اختيار أقرأ المصلين وأعلمهم بشئون دينهم، ولا يعتد بجنس أو عرق أو مال أو جاه في هذا الاختيار^(*).

ولا ينفي هذا وجود مظاهر قليلة للملك وإمارة دنيوية في العالم الإسلامي متمثلة في الشيوخ والملوك وأمرائهم الكثيرين، ولكنك لن تجد بلاطاً يذكر بلاط بيزنطة إلا في المغرب.

ومن التجارب المؤثرة أن تشاهد بعض البدو في السعودية بملابسهم البالية وهم يحاورون ولي العهد الأمير عبد الله في مجلسه الأسبوعي، ويواجهونه برأيهم، بل ويلوحون بشدة بأصابعهم في وجهه. وتماثل فكرة المساواة عند البدو المنتشرة بين المسلمين فكرة أخرى، وهي الاحترام خاصة لمن هم أكبر سنًا. هذه الفضيلة التي يُنَفَّر الغرب عنها بصفقتها رذيلة. فالمسلم يتعلم منذ نعومة أظفاره احترام مكانة الأب والأم، واحترام المعلم، وكل من هو أكبر منه سنًا؛ حتى إن الأخ الأكبر (بالتركية أبيه) والأخت الكبرى (بالتركية أبله) يتمتعان باحترام الإخوة الأصغر سنًا. هذا المنهج في التعامل باحترام مع الأكبر سنًا، من الممكن أن يؤدي في حالات فردية إلى أن يسبق قيمة العمل الحقيقي للإنسان، أو بمعنى آخر أن يتفوق العُمر على الكفاءة الحقيقية للإنسان، خصوصًا أنه ليس من الضروري أن يتواكب العُمر مع الحكمة. كما أن بالمدارس العديد من المعلمين التافهين.

ولكن في آخر الأمر، يضيف استعداد الناس لاحترام الكبار والنساء سمة إنسانية على المجتمع الإسلامي، فكثيرًا ما نفتقد - في ألمانيا مثلاً - هذا الاحترام، فنرى في السيارة العامة أحد التلاميذ يجلس فاتحًا فاه وهو يلوك العلكة، وامرأة حاملًا لا تقوى على الوقوف، ولا يفكر في أن يقوم ليجلسها مكانه.

هناك سلوك حميد آخر مرتبط بهذا الاحترام، ينتشر في العالم الإسلامي، ألا وهو احترام الخصوصية، والذي تلحظه بدقة في مدينة مثل فاس، تلك المدينة ذات المباني الشديدة الالتصاق بعضها ببعض. في هذه المدينة، يستطيع كل إنسان أن يرى من سطح بيته بيوت الآخرين، بل أن ينظر كل إنسان داخل نافذة الآخرين، ولكن سرعان ما تترأى للمرء حقيقة أن كل إنسان يمنع نفسه عن النظر إلى خصوصيات الآخرين، ويحمي نفسه من أنظار الآخرين. إنني أرى

(*) ففي الحديث: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة...» مسلم في (باب من أحق بالإمامة: حديث ١٥٦٤)، وأبو داود في (باب من أحق بالإمامة: حديث ٥٨٢).

عامة البيوت الإسلامية مبنية وفق معايير هندسية معينة؛ لتوفر الحماية والخصوصية لأصحاب هذه البيوت.

وهناك ظاهرة مرتبطة بفكرة نفى الإسلام لأيّ هيراركية، وإن لم يبد هذا لأول وهلة: ظاهرة دور الخطاب الشفوي في الحضارة الإسلامية.

فأول كلمة تلقاها محمد من الوحي هي اقرأ. اقرأ هذه لا تتضمن فعل القراءة لنفسه فحسب، بل أيضًا التلاوة على الغير، أى وجوب توصيلها للغير، ومنذ تلك اللحظة غدت تلاوة القرآن فنًا رقيقًا، وأصبح حفظ القرآن مهارة تحظى بتقدير واحترام بالغير، وهى المهارة التى يحرص مئات الآلاف حتى اليوم على إتقانها^(١).

ولكن بالرغم من هذا، فإنه من قبيل الفكر المضلل أن نتفق مع «هانز كونج» في رأيه؛ حيث يدعى أن تجسد الله في يسوع (أى التجسيد المادى)، يقابله في القرآن تجسد الله في الكلمة^(٢)؛ لأنك لن تجد مسلمًا واحدًا، يقدس وجود الله المادى في القرآن المكتوب، ولكنه يحترم كلمة الله عند تلاوته.

حديثنا هذا لا يدل بأي شكل من الأشكال على التقليل من دور كل ما هو مكتوب في العلوم الإسلامية. وكيف يكون هذا، ونحن نعلم قيمة أعمال علماء الإسلام المكتوبة. لقد تم تدوين القرآن في صحف متفرقة في أثناء حياة الرسول، وما لبث بعد فترة قصيرة أن ظهرت كتب مطوّلة يجمع فيها العلماء حديث الرسول، كما ظهرت تفاسير كثيرة للقرآن الكريم. وكذلك ظهرت روايات لسيرة الرسول، وعلوم التأريخ، وعلوم الفقه^(٣) وعلوم المعاجم وعلوم أخرى كالنحو وغيرها من العلوم. كانت علوم اللغة والبلاغة هذه منذ بدايتها وفي مراحل تطورها المختلفة حريصة دائمًا على أن تكون النصوص المقدسة وما يتعلق بها من نصوص كال تفسير في متناول كل إنسان بشكل مباشر، حتى الأمى، على عكس احتكار الكنيسة النصوص المقدسة^(٤).

(١) رأيت من خلال زيارتي لمدرسة تحفيظ القرآن في واد مدني (تبعد ٢٠٠ كم عن الخرطوم جنوبًا، وتقع بين النيلين الأبيض والأزرق) قمت بها منذ فترة قصيرة، أنهم يقومون بالتدريس هنا كما كان يحدث من فجر الإسلام. لكن إذا ما تمكن مسيحي من حفظ العهد الجديد، فإن هذا يكون أمرًا عجيبيًا يصور على أنه حدث استثنائي ومدوّ، كما حدث للإنجليزى دافيد باتهورست David Bathurst، الذى حفظ العهد الجديد (١٩٩٨/٦/٣٠، FAZ).

(٢) هانز كونج: يعلمنا الإسلام نهاية الفصل بين الدين والسياسة، Die Welt رقم ٥٥، برلين ١٩٨٩/٣، ص ١٣.
(٣) تُعَدّ «الرسالة» للإمام الشافعى عملًا يتسم بالأهمية الشديدة، كذلك كتاب ابن رشد: «بداية المجتهد» يُعَدّ نموذجًا إلى يومنا هذا.

(٤) حرمت الكنيسة على الناس اقتناء الكتاب المقدس، وعاقبت كل من تجد لديه نسخة منه حتى قيام ثورة مارتن لوتر على الكنيسة الكاثوليكية في مطلع القرن السادس عشر، وصيحتة المدوية: «البابا عدو المسيح» - (الترجم).

لم تكن علوم الدين الإسلامى ولا نصوصه علماً سريعاً فى أى وقت من الأوقات. وكل ما سبق ذكره يؤكد قيمة الشفافية فى الإسلام، ويوضح ما يتمتع به الإسلام من صلابة وقدرة على مقاومة المتربصين به. فلم يستطع السوفييت القضاء على الإسلام فى آسيا الوسطى؛ لأن اعتقال علماء الإسلام وحرق المكتبات وحده لا يفرغ الإسلام من قوته، فهناك عنصر الشفافية كوسيلة تعليم وإعلام.

يرصد صديقنا المسلم المغرم بالشرق عدة عناصر أخرى فى أسلوب حياة المسلمين - وإن بدت أقل أهمية مما سبق - ويبدى إعجابه بها. من ضمن هذه العناصر التى يذكرها بإعجاب شديد، الصبر الذى يتسم به المسلم، وهذه الصحوه التى يلمسها فى كل مكان، وهو يعنى بها قدرة المسلم على تجنب المخدرات والخمور، حتى وإن وجدت.

لن يضطر رجل فى مدن الإسلام أن يأخذ حذره من سائق مخمور ولا تضطر امرأة إلى أن تحتاط لنفسها خوفاً من مخمور يتهجم عليها. لن تستمع إلى جلبة وصخب يحدثها مخمور، سواء ليلاً فى شارع ما، أو على منضدة مجاورة لك فى مطعم قصدته.

المسلم الحق عادة ما يكون رشيقياً؛ لأنه اتباعاً للسنة لا يجوز للمرء أن يأكل حتى الامتلاء، بينما نجد أن مشكلة السمنة هى إحدى المشكلات المؤرقة فى الولايات المتحدة؛ حيث تنتشر ظاهرة السمنة بشكل مفرط، لدرجة أنها تكاد تكون مشكلة قومية، ولذلك تجد منذ اللحظة التى تطأ فيها قدمك أرض أحد مطارات الولايات المتحدة أناساً يعانون من مشكلة السمنة من مختلف الأعمار.

ومن قبيل التفسير السطحي لدرجة الإخلال بمضمون المشكلة، أن نرجع أسباب السمنة المفرطة فى الغرب إلى الشراهة فى تناول الأطعمة، بينما نعلل نحافة المسلم بصومه شهر رمضان. ولكن من المؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن مشكلتى السمنة والنحافة لا يمكن تفسيرهما فقط فى ضوء الأطعمة السريعة ذات السعرات الحرارية المرتفعة، أو اللحوم التى تحتوى على هرمونات تورث السمنة، ولكنهما يفسران كذلك فى ضوء الحالة النفسية للمرء؛ فلا عجب أن نتحدث عن «شحم الهموم»، مما يعيدنا إلى الحديث عن أهمية الإيمان ودوره فى حياة الأفراد والمحافظة عليها.

هناك أيضًا - بجانب عدم الإسراف في الملذات (*) - صورة من صور الهدوء والاسترخاء في البيئة الإسلامية الحقيقية. ويجنح البعض إلى تسويق هذا الهدوء في ضوء المناخ الحار، ولكنك تصادف ظاهرة الهدوء هذه في الأقاليم الباردة كذلك. ويحلو للبعض الآخر تفسير هذا الاسترخاء بكونه إرهاقًا متوقعًا من أناس يستيقظون مبكرًا لأداء صلاة الفجر، ولكن في حقيقة الأمر، يعود السبب في هذا الاسترخاء إلى تهذيب الضغوط الحياتية المعتادة، والذي لا يمكن تفسيره - أى هذا التهذيب - إلا من رؤية دينية للعالم وشؤونها.

هناك - بطبيعة الحال - أطباء نفسيون في العالم الإسلامي ومرضى في حاجة إلى هؤلاء الأطباء. لكن إيمان الناس وقيمتهم الثابت بالقضاء والقدر، وثقتهم بهداية الله وحسابه العادل، واعتقادهم وأملهم في الآخرة يحفظ غالبية المسلمين من إحساس يبدو سمة لما يعرف بمرحلة ما بعد الحداثة بما يتضمنه من ضياع وجودى وفراغ كونى واغتراب مأساوى. كما يحميهم من الشعور بالاكثاب بسبب التقدم في العمر، كل هذه الأمراض التي طالما حولت الكثير من الأطباء النفسيين إلى أثرياء.

فيقين المسلم وإيمانه العميق المكمل بالتقوى، يؤدي إلى تضاؤل أهمية أشياء كثيرة، تبدو لغير المؤمنين ذات أهمية عظمى.

والأمر المهم جدًّا، أنك تسمع الأذان خمس مرات يوميًّا في العالم الإسلامي مذكرًا إياك أن الله هو مانح الحياة بكل ما فيها، فهو أكبر.

ومن الوظائف التي يفترض أن يؤديها الأذان، تنظيم حياة المسلم. ولكن يبدو أن هذا لا يتم إلا في البلدان التي تُغلق فيها المحلات في مواقيت الصلاة دون غيرها من البلدان التي لا تلتزم بهذا الأمر. تسهل الدولة برفعها للأذان على المسلم تذكر مواقيت الصلاة وأدائها، كذلك توفر له شراء اللحم الحلال وهو مغمض العينين من أى جزاء؛ لأنه على ثقة بأن الذبيحة قد ذبحت حسب الشريعة الإسلامية. هذا التيسير لا يلاقيه المرء في العالم الغربى؛ حيث يقضى وقتًا طويلاً في قراءة أغلفة منتجات اللحوم ليتأكد من خلوها من لحم الخنزير.

ويتسم المسلمون بهدوء شديد فيما يختص بالوقت والزمن، حتى يُحِيلُ إليك أنك تتحدث عن شعور مختلف بالزمن، شعور شرقى بالزمن إن جاز التعبير.

(*) فى الحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاءَ شراً من بطنه. بحسب ابن آدم أكَلَتْ يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثَلْط طعامه، وثَلْث لشربه، وثَلْث لنفسه». [صحيح] الترمذى (باب ما جاء في كثرة الأكل: حديث (٢٣٨٥).

ومن المنطقي أن يتعذر وجود وقت أينما وحينما يساوى الوقت المال (Time is money). فحركة العالم تسرع خطاها في العالم الغربي بسرعة حركة دوران المال. ويؤدي الإنترنت دوراً أساسياً في هذا الصدد؛ لأنه ينتج الاتصال فيما يسمى Real Time أى الاتصال في نفس الوقت. ولذلك، فمن المحتمل توافر الوقت حيث لا تتم مساواته بالمال. ومن النتائج الإيجابية للموقف الشرقي من الوقت هو انتفاء القلق الدائم بأنك ستصل متأخراً عن موعدك، هذا الشعور الذي يلح باستمرار على الغربي.

فالمسلم لا يحول الوقت إلى طاغية يحكمه، ولا يحدد مواعيد يزرع تحت وطأة اللحاق بها؛ فهو مثلاً لا يحدد موعداً كالساعة ١٦:٢٠، بل يقول في الفترة ما بين صلاة العصر وصلاة المغرب. فالكُل يعلم أن الأولوية للصلاة.

تضفي الصحوه واهدوء المذكوران سابقاً وقاراً، يزيد من هذا الوقار الخطوة التي يحكمها الجلباب.

إنَّ أول ما يخطر على بال صديقنا المسلم هذا عند ذكر الوقار المرأة المسلمة؛ لأنها اتباعاً للقرآن والسنة ترتدى ملابس محتشمة تقيها شر الدخول في منافسة للعرى مع بقية النساء، وخاصة مع المرأة الغربية، ولذلك فقد نجحت المسلمة في العالم الإسلامي في أن تحفظ نفسها ولا تقع فريسة للاستغلال كسلعة جنسية في الدعاية أو في مكان العمل.

لقد اتخذت حركة تحرير المرأة في الغرب حماية المرأة والدفاع عن حقوقها هدفاً رئيسياً لها، ولكن المرأة المسلمة تفوقت فيما حققته من نجاح على مثيلتها الغربية، وهذا ما يدفع النساء في الغرب إلى اعتناق الإسلام، حتى إن عدد النساء اللاتي يعتنقن الإسلام في الغرب يفوق عدد الرجال، رغم كُُل الدعاية المضادة.

ويتغاضى الغرب عن حقيقة دور المرأة الرئيسي وأهميتها في البيت المسلم؛ خاصة كأم، فهي تمارس سلطة هائلة على أبنائها، أكثر مما يبدو أو يتوقع أحد في الغرب.

تحتّم الشخصية الغربية المتخيلة لصديقنا المسلم هذا، سرد الصفات التي تجذبه للحياة في المجتمع الإسلامي والتي أخذ في تبنيها بذكر حقيقة ثابتة، وهي شعوره بالارتياح لعيشه في بيئة تقدر الله حق قدره، وتنزله المنزلة اللائقة بذاته سبحانه، وهذا يتم اليوم في العالم الإسلامي أكثر منه في الغرب.

حين يدير السائق محرك السيارة، فإنه يبادر بذكر الله قائلاً: «بسم الله». ونفس هذا الفعل يأتيه كل من المحاضر وقائد الطائرة عند تحيته لضيوف رحلته، والأب عندما يهم بالأكل

ويمسك بالملقعة في يده. ولن نجد محاضرة لا يلقيها قائلها إلا ويستهلها بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله والسلام لمستمعيه.

ويُعد يوم مولد الرسول عيداً رسمياً في الدول الإسلامية.

ويشير صديقنا المسلم الغربي الذي تتملكه رغبة عارمة في الهجرة إلى عالم إسلامي والحياة فيه، إلى أن الإسلام بالرغم من الاتجاهات ذات القوة المركزية الجاذبة للإله الواحد، فإنه يتمتع كذلك باتجاهات ذات قوة مركزية طاردة تذهب به إلى التعددية. فلم يلبس خليفة ما يوماً ثوب البابا المعصوم، ولم يدع أحد في الإسلام - بما في ذلك محمد ﷺ ذاته - الكمال أو أنه منزّه عن الخطأ^(٥).

يقبل فقهاء الإسلام سبعة مذاهب فقهية، بالرغم من وجود تنافس موضوعي بينها وفي ظل اختلافات في التفاصيل^(٤).

كما أثرت التعددية علوماً كعلوم الدين والفلسفة والتصوف، مما كان له أثره في نشأة مدارس فلسفية كالمعتزلة والأشاعرة، وطرق صوفية شديدة التنوع^(٥).

أخيراً يقف كل مسلم أمام الله بغير وساطة أو تدخل لأي شخص مقدس أو أسرار دينية. وهكذا يصبح المسلمون ديمقراطيين أساسيين لا يخضعون لنفوذ أي رجل دين، ومدفوعين بتعاليم القرآن إلى إدارة كل شئون الجماعة عن طريق التشاور بين أولى الأمر والمحكومين بشكل ديمقراطي^(٦).

وهنا تنتهي مرافعة المسلم الغربي المتخيل، الراغب في الهجرة إلى الشرق.

(*) شيدت الباباوية لها مرتبة عالية تصل لاعتبار البابا نائب المسيح، أو وكيل المسيح، وأحياناً حينما تنضخم شخصية البابا وتسمح الظروف يصبح البابا هو تجسيد المسيح، والمسيح في العقيدة المسيحية هو الله. وبالطبع البابا معصوم، وهو يحلل ويحرم، وهو يغفر الذنب، وهو يدخل من يرى من رعيته ملكوت السماء، ويحرم ذلك على من يرى من رعيته، فيلقى به إلى جهنم - (المترجم).

(٤) هي المذاهب السنية الأربعة، وبجانبها هناك المذاهب الشيعية الثلاثة. تُعدّ الزيدية أقرب المذاهب الشيعية إلى المذاهب السنية، وهو المذهب الذي أسسه زيد بن علي، ويتنشر في اليمن، ومذهب الإثني عشرية أو المذهب الجعفرى، وهو أكثر مذاهب الشيعة عددًا، ويعيش أتباعه في الشام والعراق والخليج وإيران ووسط آسيا، بعد ذلك هناك الشيعة الإسماعيلية، وأكثرهم في وسط آسيا، وبجانب ذلك هناك المذهب الإباضي، وهو في سلطنة عمان، وعدد من أتباعه في الجزائر وليبيا، وأخيرًا المذهب الظاهري والذي كاد يندثر.

(٥) تقدم أن مارى شيميل عرضاً وافياً ودقيقاً للطرق الصوفية الكثيرة على تنوعها.

(٦) أشير هنا إلى مبدأ الشورى الذي ذكرته الآية ١٥٩ من سورة آل عمران، والآية ٣٨ من سورة الشورى، كأساس لحياة شورى إسلامية. والذي يسميه الشيخ محفوظ نحناح الجزائري «شورى قرآنية».

نتوجه الآن بسؤالنا عن الإسلام والحياة في العالم الإسلامى إلى الشخصية المتخيلة الثانية، شخصية الغربى المعتنق للإسلام، ولكنه - على النقيض من زميله - يرصد سلبيات ونقائص عالم الشرق.

نحن أمام شخص مثله كمثل محمد أسد، الذى يحمد الله - وهو فى الخامسة والثمانين من عمره - على أنه اعتنق الإسلام قبل أن يتعرف على العالم الإسلامى^(٧). لأنه لم يكن ليستطيع أن يتجنب رؤية الواقع الذى يلقى بظلاله على النظرية الإسلامية ذاتها والمشروع الإسلامى، ولا أن يركز اهتمامه أساساً على النظرية الإسلامية ذاتها وليس تطبيقها من قبل البشر فى الفترة الحالية من تاريخ الإنسانية والمسلمين.

صديقنا هذا ينظر بسلبية شديدة إلى معظم ما رآه زميله إيجابياً فى العالم الإسلامى، ويوجه نقده الشديد إلى غالبية العناصر التى امتدحها زميله.

العالم الإسلامى جزء من العالم النامى، الذى لا يتوافر فيه إلا أربعة أشياء فقط: الشمس، والصحراء، والأطفال، والوقت. ولن تجد لهذا الوضع - الذى يحجبه فقط استيراد التكنولوجيا من الخارج - عذراً أو تسويقاً تاريخياً أو جغرافياً.

يتسم مفهوم العائلة عند المسلمين بازدواجية شديدة، حتى إنك تستطيع أن تراه عاملاً أساسياً للفساد الذى يسرى فى العالم الإسلامى حتى النخاع. ففى العالم الإسلامى، تُقسم المناصب المهمة بناءً على علاقات القرابة والمحسوبية، ومن ثم يحتل كثيراً من المناصب المهمة والحساسة أناس غير مؤهلين تنقصهم الكفاءة، وبذلك تحرم هذه الدول من كفاءات تحتاجها فى تنميتها. بل إن هذا الأمر يعوق عوامل وأسباب نموها. يرى العامة من مسلمى الشرق أنفسهم ملتزمين أخلاقياً بحماية علاقات القرابة، حتى إنه لا يتباهى أى شعور بالذنب تجاه من يظلمونهم لحساب قرابتهم. لم يكن أحد ليجرؤ على أن يأتى مثل هذا السلوك فى الغرب وإلا وجد نفسه مهدداً بدخول السجن إن لم يدخله فعلاً.

أما بالنسبة للدفع الذى تتسم به العلاقات الإنسانية بين أفراد الأمة، فهو حقيقة ولكنها

(٧) كذلك قال لى أسد البالغ من العمر آنذاك ٨٥ عاماً فى لسبونه عام ١٩٨٥.

حقيقة منقوصة وغير كاملة. فلا يمكن، بناءً على ما يحدث على أرض الواقع، أن ندعى أن العمالة الأجنبية التي يبلغ تعدادها الملايين في شبه الجزيرة العربية، تعامل معاملة الأخوة في الإسلام، ويعضد هذا الرأي - الذى ينكر معاملتهم معاملة الأخوة - حرمانهم من حقهم فى اصطحاب عائلاتهم، وحق الإقامة الدائم، وعدم صرف معاشاتهم المستحقة بعد انقضاء مدة الخدمة. فهل يجوز ترحيل الباحثين عن العمل من فقراء المسلمين (من الباكستانيين والمصريين والفلسطينيين والمغاربة) - حتى وإن دخلوا البلاد بطرق غير شرعية - دون إجراءات قانونية، وفى ظل ظروف غير إنسانية؟!

أما بالنسبة للدول الفقيرة التى يبحث مواطنوها عن فرص عمل فى دول الخليج الغنية، فستقع عينك فيها على مظاهر رفاهية لن تجد لها مثيلاً فى دول غنية كثيرة. فعلى سبيل المثال، فى المغرب، ترى بعض نساء المغرب وقد ارتدين الملابس الفاخرة والمجوهرات الثمينة التى لا تجد لها مثيلاً بين سيدات السلك الدبلوماسى فى الغرب - وغيره من دول - أكثر غنى.

قد يبدو هذا القول لاذعاً وشديد السخرية، ولكنه قريب جداً من الواقع. إن ملاحظة حياة من كانوا بدواً سابقاً فى دول الخليج تعطيك الانطباع بأن أئمن ما فى حياتهم وأغلاهم، ليس الإنسان رجلاً كان أو امرأة، وإنما هو القصور والأملك، بل والحيوانات الأصيلة كالخيول وصقور الصيد والنوق الهجن. فالاهتمام بصقور الصيد مثلاً، الذى يصل إلى حد استقدام إخصائيين نفسيين لهذه الصقور التى يبلغ ثمن الواحد منها مئات الآلاف من الدولارات، لا يثير استغراب مسلمى الغرب وحدهم.

أما محك الاختبار الحقيقى لشعور الإخاء الذى طالما تغنى به المسلمون، فهو القضاء على الفجوة الرهيبة بين فقراء الأمة وأغنيائها.

لا يمكننا بأى حال من الأحوال أن ننكر أن هناك الكثيرين من حكام بلاد البترول وغيرهم من أغنياء المسلمين، يبذلون الكثير من الأموال - بشكل فردى وشخصى - لشئون الإسلام كبناء المساجد والمراكز الأكاديمية، وأود أن أؤكد أن توزيع المال والصدقة على مستحقيها أبعد ما يكون عن الأمر اليسير، وعلينا أن نأخذ كذلك فى الحسبان أن المطالب الأساسية للمعيشة كالماء والكهرباء يحصل عليها المواطن بلا مقابل، أى بالمجان فى بلاد البترول.

ولكن بالتوازي مع كل هذا، يُصعق المسلم الغربى بمظاهر ثراء ورفاهية يعجز عقله

عن استيعابها، فلا تتماشى هذه المظاهر مع الأخوة المرجوة، ومع الاحترام الشديد لرغبة المسلم فى بذل الأموال لوجه الله، فإننى أرى ألا ينفقوا أموالهم فى بناء المزيد من الجوامع، بل فى إقامة دور الحضانة والمدارس الإسلامية، وتكوين جمعيات تهدف إلى مساعدة المسلمين.

وبما أننا تطرقنا إلى حديث المال، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل حقيقة أن الدول الإسلامية تودع أموالها بالغرب وغيره فى ظل نظام يتعامل بالفائدة، بالرغم من نهى القرآن عن هذا التعامل، وبغير تقديم حلول مبتكرة للاستثمارات الخارجية. لقد حدد الإسلام طريقة الربح الحلال لرأس المال، الذى يحتمل الربح والخسارة معًا. ولهذه الأسس فوائدها الاقتصادية وليست الأخلاقية فحسب؛ لأنها تشجذ من مخيلة صاحب العمل واستعداده للمغامرة، وهى إحدى الدعامات الأساسية للبناء الرأسمالى.

المحزن فى الأمر أننا فى عامنا ١٤٢٠ للهجرة، ما زال ينقصنا نظام إسلامى اقتصادى^(*).

لا نستطيع أن ننفى عن الإسلام نزعته للمساواة وإقرارها بين البشر على المستويات كافة، وذلك منذ بواكير التاريخ الإسلامى، حتى إننا نلاحظ على مر العصور محاولات عدة لإقرار هذه المساواة اجتماعيًا وسياسيًا.

ولكن هذا لم يمنع وجود آلاف من الأمراء فى شبه الجزيرة العربية يطالبون لأنفسهم بمميزات دون غيرهم من البشر، وذلك بصورة علنية يعرفها الجميع.

كما أن العالم العربى يزخر بمن يطالبون لأنفسهم بحقوق تفوق حقوق غيرهم، استنادًا إلى ثروة أو جاه أو عائلة أو نسب أو محسوبية. ويتبع هذا ضرورة أن نعتز بنصرة الدول الإسلامية التى تستطيع أن تدعى أن مواطنيها يشاركون فى عملية الحكم، حتى فى ظل وجود انتخابات ومجالس نيابية.

أما احترام الكبار، والذى يحكم حياة المسلمين، فله مخاذهره؛ حيث يمكن أن يؤدى إلى اعتقاد مطلق فى السلطة، وعدم التعرض بالمساءلة أو النقد. وهذا من شأنه أن يؤدى، ليس فقط إلى عدم أهلية المجتمع للممارسة السياسية الحرة والحوار السلمى كوسيلة تغيير، بل أيضًا إلى عجز المجتمع عن تحقيق إنجازات علمية جديدة؛ لأن نقد الذات (أى افتراض الشك فيما هو قائم) هو السبيل للتقدم العلمى.

(*) سبقت ماليزيا بقية دول العالم الإسلامى بربادتها لنظام جزئى للتمويل والاقتصاد الإسلامى، برغم أن المسلمين بها حوالى ٥٥٪ من السكان، ومن يرد الاستزادة يمكنه قراءة كتاب «التجربة الماليزية»، من منشورات مكتبة الشروق الدولية - (المترجم).

ولقد تعرضت الحضارة الإسلامية لهذا الخطر، بل دبّ الضعف في أوصالها في القرنين ١٤، ١٥ الميلاديين، حين تضاعف احترام العلوم، بل اختفى تمامًا الاهتمام بكل ما هو جديد، وتحول احترام الإنجازات العلمية للسابقين إلى مجرد تقليد، وأغلقت الأمة باب التجديد، حتى صارت ممارسة العلوم محصورة في كتابة المتن والحواشي والفهارس لأعمال السابقين.

لقد أخطأ علماء هذه الحقبة حين اعتقدوا أن الأولين بحثوا في كل نواحي العلوم الإسلامية، حتى لم يعد أمامهم مجالات بحث، وأن الأولين كانوا بحكم قربهم من المصادر الأولية للإسلام أكثر قدرة على البحث.

وقد أدى هذا الانحطاط الفكري في الحضارة الإسلامية إلى الانهيار الاقتصادي والعسكري وسقوطها ما بين القرنين السابع عشر، والتاسع عشر.

يعتقد غالبية المسلمين أن تخلفهم المادي اليوم ما هو إلا نتيجة للاستعمار الأوروبي، الذي تعرضت له بلادهم إبان فترة الإمبريالية الغربية، ولكنني أرى العكس: فلقد تعرض العالم الإسلامي للاستعمار بسبب حالة الانحطاط^(٨) التي كان قد وصل إليها من جراء اتجاه التقليد، الذي استشرى في العلوم والفكر^(*).

ويقرر علم النفس أن تحميل الآخرين مسئولية فشل المرء يُعدّ من الآليات التي من شأنها إراحة النفس. لكن هذه الآلية قد تحولت في العالم الإسلامي إلى حالة جنون مبالغ فيها، فكل الكوارث يتم إرجاعها إلى نوع من تأمر الغرب على العالم الإسلامي.

والتفسير التأمري هذا دائمًا ما يحمل المخابرات الأمريكية، والموساد والمنظمات الصهيونية وعملاءهم، وكذلك الناتو، المسئولية الرئيسية لكل ما يحيق بالأمة الإسلامية من مصائب.

فالبعض يعتقد حقيقة بوجود «خطة رئيسية - Master plan»؛ لتدمير الإسلام والعمل على تخريب العالم الإسلامي.

وما أعطى مصداقية لكلّ ادعاءات التآمر هذه: فشل حلف شمال الأطلسي في وقف النزاع المسلح في البوسنة في سنواته الثلاثة الأولى، وإخلاق الولايات المتحدة في انحيازها

(٨) أسد (١٩٨٨).

(*) بدأت أوروبا الغربية في استباحة الآخر فور قدرتها العسكرية على ذلك من بداية القرن السادس عشر، وقد استعمرت ثلث مساحة العالم على مدى خمسة قرون، ومن ضمن ذلك العالم أمريكا كلها، ومعظم إفريقيا، ومعظم آسيا بما في ذلك الهند والصين، وأستراليا، وغزت الولايات المتحدة أسواق اليابان بقوة بوارجها الحربية بقيادة الكومودور بيرى في منتصف القرن التاسع عشر - (المترجم).

الكامل والدائم لإسرائيل، وبرز يهود كمساعدين رئيسيين للرئيس كليتون، وموظفين يحتلون مناصب مهمة في إدارته.

هذا مع أن أيسر وأقرب التفسيرات هو أن الدول غارس سياسة تخدم مصالحها الخاصة، وأن اختراعات شخص مثل بيل جيتس، تغمر العالم على الرغم من الجميع؛ لأن التكنولوجيا فائقة التطور، كالماء تصب من أعلى إلى أسفل وليس العكس.

وتعدّ الحالة النفسية التي سبقت الإشارة إليها ذات ضرر بالغ للمسلمين؛ حيث تمنعهم من التفكير في نقاط ضعفهم وتشخيص أسباب فشلهم الحقيقية وتحديدها، وبالتالي تشل قدرتهم على المبادرة بإيجاد حلول للخروج من أزمتهم.

هناك ظاهرة أخرى مرتبطة بالاتجاه إلى التقليد ولا تقل عنه ضرراً، وهي الخوف من كل جديد وعدم السماح به. ويظهر هذا أوضح ما يظهر في مناهج وأساليب التعليم في العالم الإسلامي؛ حيث يسود في المدارس - خاصة في المرحلة الأساسية - أسلوب التلقين والحفظ والسميع، بدلاً من التساؤل عن أصول الأشياء وإعمال العقل، حتى صرنا نتحدث عن أمية المتعلمين.

ويميل علماء مسلمون - حتى الآن - إلى إثبات رأيهم عن طريق الاستشهاد بآراء من لهم مكانة وسلطة، بدلاً من الإتيان ببراهين وحجج توصلوا هم إليها، فيأتي حديثهم غالباً على النحو الآتي: قال فلان: «....» وقال فلان: «....».

أما السبب الرئيسي لهذه الظاهرة، فهو تضيق مفهوم التجديد وتوسيع مفهوم البدعة في الإسلام، رغم أنه يحتمل المعنيين الإيجابي والسلبي، فقصره البعض على معناه الثاني - السلبي - فكل تجديد في الفكر الإسلامي والممارسات والسلوك يُعدّ بدعة (بالمعنى السلبي للتجديد) غير مسموح بها. وهكذا انتشرت عقدة «البدعة» التي مكنت البعض من استخدام تهمة «البدعة» كسلاح يشهرونه في وجه كل من يعارضهم، ويستخدمونه حسب أغراضهم ومصالحهم، وهذه التهمة عواقبها الوخيمة.

ولقد أدى الخوف من التجديد، ووصم كل ما هو جديد بـ «البدعة» إلى ركود فكري، وتوقع على الذات، والانفصال عن التطور التكنولوجي الغربي.

يحث الإسلام المؤمنين على الصبر، فإله مع الصابرين. ولكن هذا لا يسوّغ ما يمارسه بعض

الموظفين المسلمين في أماكن عملهم، فهم يجعلون من له طلب عندهم، ينتظر حتى يفرغ من إفطاره أو حتى يفرغ من حديثه التليفوني الخاص المطول.

وإن كان البعد عن الملذات فضيلة يحث عليها الإسلام، إلا أنك لا تجده مُمارسًا بالشكل المفترض في العالم الإسلامي.

فإذا كان محرمًا على المسلمين تقديم الخمر، فإننى لا أعلم أى شركة طيران تمتنع عن تقديم هذه الخمر، ما عدا شركة الطيران السعودية. وهل من الممكن أن نقضى على الخمر والمخدرات إذا كنا نسمح (كما هو الحال في دبي) بأن يسكنها غير المسلمين بنسبة تبلغ حوالى ٩٢٪، وهؤلاء من غير المسلمين لهم الحق في تناول الخمر وفق الشريعة الإسلامية؟ ولن ندهش إذا علمنا أنه في ظل هذه الظروف، كانت دبي تروج بالساقطات الروسيات.

ويمكنك كذلك أن ترى الإحساس الإسلامى بالوقت من منظور مزدوج. فمن الممكن أن يكون تسويغًا فقط لعدم الدقة في المواعيد الذى يُتهم به المسلمون، وهو تعبير عن عدم الاهتمام بالآخرين واحترامهم، كما أنه تبديد للوقت.

ومن الجائز أن تضيفى الملابس المحتشمة الوقار على المرأة المسلمة، ومن المؤكد أن المرأة المسلمة تؤدى دورًا رئيسًا في الأسرة، ولكن هذا لا يعنى أنها تضطلع بالدور المنوط بها في القرآن والسنة، ولا أنها تتمتع بكل الحقوق التى يمنحها إياها الإسلام. فعلى المرأة في العالم الإسلامى أن تعمل على تحرير نفسها من منطلق إسلامى. فهذا العالم ظل إلى الآن عالمًا للرجال.

أما التعددية التى يتسم بها الإسلام على المستويات كافة، فهى الأخرى قابلة لأكثر من تفسير. فهذه التعددية ثراء، وعلى الجانب الآخر ضعف. فالدول الإسلامية تعاني من فرقة شديدة، حتى إنها عرفت بها، فغدت إحدى العلامات المميزة لها. هذا بالرغم من نشأة الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ وقيام منظمة المؤتمر الإسلامى عام ١٩٦٩ بما تضمه من ٥٦ دولة.

وهذا الاختلاف والتشردم أصبح علامة مسجلة للمسلمين، حتى في أوروبا والولايات المتحدة، فأصبحت مهمة أعداء الإسلام يسيرة جدًا.

أما ما يدعو إلى القلق حقيقة، فهو غياب التعددية في الآراء والمذاهب، والتسامح مع الرأى المخالف، هذه التعددية الفكرية التى عرفت عن الفلاسفة المسلمين في الأزمنة السابقة.

فالمشهد الإسلامى تحكمه اليوم أقلية من المنظمات الإسلامية السياسية، والتى تتناحر بعضها مع بعض؛ لأن كلاً منها يعتقد أنها وحدها تسير على درب الهدى دون غيرها.

هذه النظرة الضيقة يمكن تسويغها بأن هذه الحركات غالبًا ما تجد نفسها في صراع مع نظم الحكم القائمة التي تخشى على وجودها. وعلى الشخص الذى يجازف بحياته ويكون على استعداد لتحمل العذاب أو الموت في سبيل الإسلام، أن يحدد أولاً ويعرف أىّ إسلام هذا الذى يضحى من أجل إعلاء شأنه. وعلى أىّ حال لا يشترط أن يكون المرء بالضرورة سلفيًا إذا ما عاد إلى الأسس الرئيسية للإسلام.

وهناك تفسير آخر للنظرة الضيقة التى تمارس بها الجماعات الإسلامية نشاطها، هو أن قادة هذه الجماعات أكاديميون، ولكن ليسوا علماء دين أو فلسفة، بل معظمهم من خريجي كليات الهندسة والطب والعلوم، الأمر الذى يلفت النظر.

ولقد رصدت ظاهرة أخرى شديدة الارتباط بما سبق ذكره، وهو انبهار بعض الشباب المسلم بشئون هامشية غير ذات أهمية. فاهتمام الشاب ينصب على البحث في أسئلة، مثل: هل يفسد طلاء الأظافر الوضوء أم لا؟ هل يُعدّ الشعر المستعار غطاءً مناسبًا للرأس أم لا؟ هل يجوز شرعًا تركيب أسنان ذهبية؟ هل يجوز استخدام مواد التجميل التى تحتوى على مواد كحولية؟ هل يجوز استخدام الشوكة والسكين في تناول الطعام؟ هل يجوز شرعًا أن يكون المرء أشول؟ هل يجوز إهداء قرآن لغير مسلم؟ هل يجوز مصافحة الجنس الآخر باليد المجردة؟.

هذه أسئلة حقيقية يبعث بها القراء في العالم العربى الإسلامى إلى علماء الدين للإجابة عنها، ويبدل هؤلاء العلماء جهدًا ملحوظًا للإجابة عنها فعليًا^(٩).

إننى أحيى - بطبيعة الحال - اهتمام هؤلاء الناس وحرصهم على إتيان السلوك القويم والتأكد من صحة تصرفاتهم، ولكنى لا أستطيع أن أتجاهل المخاطر التى تهدد الإسلام من جراء هذه التفاصيل، فإننى أرى خطرًا يلوح أمام عيني، وهو أن يتحول الإسلام إلى تعاليم تلمودية، كما هو الحال في التعاليم المتشددة للدين اليهودى.

ذلك؛ لأن الإسلام في جوهره - على النقيض من ذلك - يهدف إلى تسهيل حياة البشر والتخفيف عنهم وليس تعقيدها والإثقال على المسلمين.

(٩) هذه الأسئلة مصدرها الخطاب الدورى الذى تصدره لجنة المسلمين الألمان (محررها عبد الله بوريك). تحذر السنة من ضيق الأفق في التفكير. قال رسول الله ﷺ «هلك المتنطعون» قالها ثلاثًا، [صحيح] مسلم في (العلم: حديث ٢٦٧٠/٧). كذلك جاء «إن الله يحب عظام الأمور ويكره سفاسفها». [صحيح] رواه الطبراني في «الكبير» (٨٢٦).

بعد سماع الرأيين المتعارضين، تتابنا نفس الحيرة التي انتابتنا من قبل عندما استعرضنا رأى الطالبين المسلمين في الغرب، ونقول نفس قولنا السابق: لا نستطيع أن نلوم واحدًا منهما، أو أن نفضل رأيًا على الرأى الآخر بشكل قاطع، فكل منهما له أسس موضوعية، ولكنه يستعرض دائمًا مسائل قابلة لأكثر من تفسير، ثم يحكم على هذه المسائل من وجهة نظر معينة، فالعالم الإسلامى كذلك له وجهان.

إننى أوصى بعد هذا التبادل - المتخيل طبعًا - للملاحظات ألا ننحاز إلى العالم الإسلامى أو أن نرفضه تمامًا؛ لأننا فى آخر الأمر استطعنا أن نبلور عدة عناصر، تثبت النظرية القديمة القائلة: إن النور ينبعث من الشرق. وسنصل إلى نفس النتيجة إذا ما شهبنا الشرق بعالم الكيف، والغرب بعالم الكم. هذه المقارنة التى قد يبدو فيها الكثير من السطحية، إلا أنها تخفى وراءها الكثير من الحقيقة. فالعلاقات الإنسانية - حتى علاقات الحب - فى الغرب تحكمها قوانين السوق. فالكل سواء فى الدولة أو فى المجال الاقتصادى والثقافى والرياضى، حتى فى العائلة والعلاقات الحميمة بين البشر، الكل يبغي تحقيق أقصى درجات الربح الممكنة فى علاقاته، وتحسين الإنتاج عن طريق الرفع من مستوى الفاعلية والكفاءة.

فكل ما لا نستطيع ترجمته إلى أرقام لا قيمة له فى الغرب، بل يتحول إلى شيء مبهم، غريب غير منطقى، بل إلى رفاهية.

وفى ظل هذا، يظل الشرق وبخاصة العالم الإسلامى مأوى وملاذًا للروحانيات، لمعرفة الله ولمعايشة المقدسات. ويؤدى ذلك إلى إضفاء قيمة على أشياء ليس لها قيمة مادية فى حقيقة الأمر كالوقت، والهدوء والسكينة، أن تستغرق فى التأمل، أن تجلس فى ظل شجرة، أن تستطيع أن تتناول كوبًا من الشاي أو فنجانًا من القهوة دون استعجال وفى وقته المناسب، مثل قهوة الصباح أو المساء، أن تستمتع بقصيدة ما، أن تستغرق فى حديث عن الله أو مع الله. وإذا كان الأمر هكذا - وأنا على يقين من هذا - فليس الغرب هو من يستطيع وحده أن يقدم للشرق شيئًا، بل يمكن للشرق كذلك أن يقدم الكثير للغرب، ولكن هناك ما يعيق تحقيق هذا الأمر، وهذا ما سوف نتناوله فى الفصل القادم.
